# المحاضرة التاسعة: الكوارث الطبيعية وأثرها على العمران في الغرب الإسلامي.

## – لمحة عامة عن التأريخ للأزمات والكوارث الطبيعية

يعتبر موضوع تأريخ الأزمات الطبيعية من المواضيع البحثية المتجددة كما يُمَثِّلُ حوارا "جِدِّيا" بين تاريخ الطبيعة وتاريخ الإنسان، حوارا يروم اختبار صحة مقولة" جدلية التَّحدِّي والاستجابة "بتعبير الفيلسوف أرنولد توينبي، ويكشف عن سقف التفاعل بين المتغيرات المناخية والإفرازات السلوكية والذهنية للإنسان كما أنه يعُدُّ وبكل المقاييس موضوعا إشكاليا مفعما بالمطبَّات التي تمتزج فيها ندرة المتون النصية بالتعقيدات المنهجية التي تفرضها طبيعة موضوع بهذه الشاكلة.

## – المجاعات:

لم يكن مصطلح **المجاعة** مُوحَّد الاستعمال في سائر المصادر التاريخية؛ فكتب المناقب مثلا اصطبغت في الكلمة المجاعة بصبغة دينية محضة، وفضلت استخدام لفظ المسغبة الذي هو مرادف لها، وقد سارت المصادر الفقهية في تصورها للمجاعة على نهج كتب المناقب، فإضافة إلى مرادفات عديدة للمجاعة استخدمتها كالقحط والجوع والشديدة والخصاصة والمجاعة والشِّدَّة، إلا أن المصادر الفقهية آثرت في كثير من الأحيان استعمال لفظ المسغبة أيضا.

وتعتبر ظاهرة المجاعات من أهم الأزمات التي شادتها بلاد المغرب، وترجع حس العلامة المؤرخ ابن خلدون إلى عوامل بشرية أهمها فقدان الادخار، وعدم الاستقرار، وعوامل أخرى تتعلق بالمناخ وأهمها قلة تساقط الغيث.
ولخصها في قوله: "ثم إن المجاعات والموتان تكثر في آخر الدول، والسبب فيه فلقبض الناس أيديهم عن الفلح، في الأكثر بسبب ما يقع آخر الدولة من العدوان، في الأموال والجبايات أو الفتن الواقعة في أنقاض الرعايا وكثرة الخوارج لهرم الدولة.

## 1–المجاعات: المسببات والنماذج:

تقف عدة مسببات وراء المجاعات، فهناك ما يتعلق بالجان الطبيعي، وهناك قسم آخر وطيد الصلة بالإنسان، وسنقف فيما يلي على نبذة يسيرة منها رفقة نماذج موجزة تتعلق بتاريخ الجزائر.

## 1- 1-الحروب والفتن وعلاقتها بالمجاعات:

تعتبر الحروب والثورات والفتن أهم الكوارث التي شكلت مصدر خطر لساكنة المغرب، ومن النماذج على ما سبق اجتياح بني غانية لبجاية، والتنافس الشديد بين كيانات سياسية ثلاث أولها الحفصية وثانيها الزيانية وآخرها المرينية؛ وأشهرها الحصار الذي تعرضت له مدينة تلمسان الذي قاده أبو يعقوب يوسف المريني ، بحيث أحاط بها العسكر من جميع جهاتها، فنال سكانها الجوع ، ما لم ينل أمة من الأمم فاضطروا إلى أكل الجيف ولقطط والفئران وأشلاء الموتى على حد قول ابن خلدون، و ارتفعت أسعار المواد الغذائية، وأطلق المرينيون أيديهم على المنازل نهبا واكتساحا و أصدروا أمرا بقتل كل من يُدخل بضاعة أو مواد غذائية إلى مدينة تلمسان ، وبلغ عدد الموتى من أهل تلمسان قتلا وجوعا وتشريدا زهاء مائة وعشري ألف نسمة.

وكذا تحرشات الأسبان على الساحل المغربي بالإضافة إلى الفتن الداخلية التي جرت لأجل الوصول إلى السلطة.كما أن الهلاليين أثروا في بلاد المغرب الأوسط بسلوكياتهم التي تحكَّمت في ملكيات الناس و التَّسَبُّ في فقرهم، فلقد كانت بلاد المغرب الأوسط قبل مجيء أعراب بني هلال لها دور نشيط في التجارة الصحراوية، فكانت ورجلان و تلمسان و تيارت من أهم المحطات التجارية للقوافل الآتية من بلاد السودان مصدر الذهب و الرقيق الأسود،خصوصا في العهد الرستمي.

## 1-1-الضرائب:

تعتبر الضرائ المجحفة من أهم المسببات الرئيسة للمجاعات، ولقد أشار المؤرخ ابن خلدون أن الدولة عندما تستحدث مغارم وضرائب جديدة أن ذلك" يؤذن باختلال العمران ويعود على الدولة ولايزال بذلك يتزايد إلى أن تضمحل ".والمطلع على النظام الضريبي السائد طيلة الحقبتين الحفصية والزيانية يلحظ مدى تأثر الفلاحين بالمكوس والمغارم المفروضة عليهم.وأدى إلى تراجع النشاط الفلاحي فأدى ذلك كنتيجة لازمة إلى تراجع الأقوات والبضائع التي يتم نقلها من البوادي والأرياف إلى الحواضر والمدن، مما أدى إلى اختلاف ميزان العرض والطلب فأدى إلى ندرة السلع، ثم أدى في نهاية المطاف إلى حدوث المجاعات.

## 1-3-آفة الجراد:

شكَّل الجراد آفة طبيعية خطيرة على الإنسان وموارده في كل عصر وفي كل مصر، وكان تأثيرها بالغا في بلاد المغرب، ذلك أن هجومه المفاجئ بأسراب عديدة على المزروعات والمغروسات غالبا ما كان يتسبب في مضاعفات سلبية وفي مقدمتها المجاعات وأمراض سوء التغذية .وعلى ضوء دراسة أجريت لتفكيك ألغاز الجراد المهاجر اتضح "أن المناطق الصحراوية الحارة شكلت بيئة مواتية لاستيطان الجراد ".فكانت الصحراء بمناخها الحار و ما تزال

موطن انبعاث الجراد الجوَّال المتجه نحو المغرب، وعادة ما كان اكتساحه يخلف دمارا بيئيا، وعجزا غذائيا إن لم نقل مجاعة فجائية بدليل"قدرته الفائقة على إتلاف مئات الأفدنة يوميا".

ومن النماذج على تأثير الجراد، ما وقع في كامل بلاد المغرب سنة 624 هـ/1228م فأتى على المحاصيل بكل أشكالها وأنواعها،فأدى ذلك إلى ارتفاع سعر القمح و شتى المواد الغذائية ، و عاودت أسراب الجراد حملاتها سنة 630 هـ/ 1232 م، فأد ذلك إلى مجاعة م أقصى الشرق إلى أقصى المغرب ، فندرت الأقوات ،و نقصت الغلات،وقل مردود الأرض .

**1-4-نتائج المجاعات:**

يعد النزيف الديموغرافي من بين نتائج القحوط والمجاعات، واستادف بصفة أشد شريحة العوام التي تمثل قاعدة هرم المجتمع، ومن سلم من الهلاك عاش محنة التضور جوعا،فضلا عن وجود القابلية لاستفحال الأمراض والأوبئة.

-شادت بعض الفترات الزمنية مثل القرن الثامن الهجري أقل نسبة من القحوط والمجاعات، والراجح أن ذلك يعود من جهة إلى جهود دول القرن الثامن الهجري في إنشاء المرافق الصحية وتشجيع الإنتاج الفلاحي وأعمال البر و التضام ،و من جهة أخرى إلى انشغال المؤرخين بالوباء الذي ابتلي به إنسان العدوتين خلال النصف الثاني تقريبا م القرن الثامن الهجري.

**2-الأوبئة**

تأتلف غالب المفاهيم العلمية لمصطلح الوباء أنه مرض عامل حاصل بسب" فساد الهواء"، ولقد وقع خلط بين مصطلحي الوباء والطاعون دون أن تفرق بينهما، مما يصعب معرفة نوع المرض الوبائي لأي فترة زمنية يحدث فيها، في كان الوباء في الاصطلاح العلمي أشمل وأعم من مرض الطاعون، فكل طاعون وباء وليس كل وباء طاعونا. ولقد ظهرت على سبيل المثال العديد من الأمراض الوبائية في تلمسان خلال العهد الزياني ومن أهمها مرض البلعوم( الحنجرة) الذي ينجم عنه التهاب الحلق و تورمه فترتفع درجة حرارة المريض. وكذا مرض الذبحة الصدرية ، مرض الدماميل و الأورام التي كانت منتشرة بتلمسان، وأمراض المعدة، واستند العلاج أساسا على الأدوية النباتية واللقاح، وإجراء الاسهال و تطهير والأمعاء ، والحجامة و هي أكثر الإجراءات العلاجية شيوعا و كان العلاج يتم تحت إشراف الأطباء في بيمارستان المدينة ويعمل بالمستشفى الأطباء والحكماء، لمداواة المرضى و معالجتهم و التخفيف من آلامهم، معاهتهم، وكانت به عدة غرف متخصصة للحمى و المجانين. و من أشار فقهاء العصر الفقيه الصالح محمد بن يوسف السنوسي( ت 895 هـ/ 1489 م )الذي درس العلوم الطبية ،وربط بين الدين و الطب و استعان بالأحاديث النبوية في المجال الطبي و التزم بتوجيهاتها في علاجه. ومن أشهر و أشد

الأزمات الصحية التي مرت بها بلاد المغرب الوسطى( الجزائر) حاليا بالأخص تلمسان" **الطاعون** "حيث انتهى الباحث عبد العزيز فيلالي أن هذا الوباء الجارف يعد من أشد الجوائح الطبيعية و أكثرها فناء للبشرية و فتكا بها، فقد عرفته بلاد المغرب عامة و تلمسان خاصة، خلال العهد الزياني ، فكان يظهر على رأس كل عشر سنوات ، أو خمس عشر سنة أو عشري نسنة تقريبا ، و يذهب بالآلاف من الناس .وقد اجتاحها سنة 750 هـ/1349م.

**3-العواصف والسيول:**

شادت المنطقة الوسطى الشمالية من المغرب كوارث طوفانية زاد من حدتها اندلا ع الرياح والعواصف، وتزامن ذلك مع حروب ضروس بين المرابطين والموحدي .ومعلوم أن هذه الفيضانات جاءت بعدما عانى سكان المغرب من مجاعة سنة خمس وست وثلاثين وخمسمائة، مما هيَّأ الظروف لحدوث الأوبئة في وقت ارتفعت فيه أسعار المواد الاستهلاكية ومن النصوص التاريخية القيمة التي تكشف الأثر التخريبي للسيول الجارفة، والتي أشار إليها الباحث عبد الهادي البياض، هو ما ذكره أحد المؤرخين في سياق الحملة التي قام بها الموحدون لرد بني غانية عن بجاية سنة 581هـ/ 1185 م، فلما وصلت الجيوش الموحدية إلى مدينة فاس" أمسكهم بها ترادف الأمطار، وتعذر الطريق بالوحل ومدود الأنهار إلى أن صحت السماء وجفَّت الأنواء . ولقد عاصر المؤرخ يحي بن خلدون أحد الأعاصير الذي خلف دمارا ومجاعة سنة776هـ/1373م حيث قال عن تلك المجاعة ":إنها نتجت عن إعصار عظيم، أهلك زرع صائفة تلمسان وحيوانها، فأكل الناس بعضهم بعضا، وافتقروا إلى ما لدى السلطان ".الذي تصدق بنصف جبايته على الضعفاء من أهل تلمسان.

**4-ردود أفعال الإنسان المغاربي إزاء الأزمات والكوارث الطبيعية:**

كشفت الكوارث الطبيعية ردود أفعال متباينة، عبر عنها الإنسان المغاربي خلال العصور الوسطى في شكل إفرازات ذهنية وسلوكية، سعيا منه للحد من خطورة السيول والقحوط والأمراض والأوبئة، فتارة كانت المواجهة تتخذ صور سلوكات عدوانية كالسطو والنهب والتعدي، وتارة أخرى تظهر في إفرازات ذهنية وممارسات استسلامية تواكلية همها الانسحاب من واقع المعاناة بالفرار أحيانا، والزهد أحيانا أخرى .ومن جهة آخر طفت على سطح المواجهات ذهنيات الشعوذة والسحر والخرافة، والتي ارتبط بها الإنسان وسخَّر طلاسمها كوسائط ادَّعى قدرتها على تخليصه من شبح الكوارث الطبيعية.

**4-1 -ممارسات السلب والنهب:**

أسامت الكوارث المتلاحقة في مجال المغرب خلال الفترة المدروسة في ظهور سلوكات السطو والتعدي والناهب وقطع الطرق، وهي ممارسات عُدوانية انتفى بسببها العيش داخل المجتمع في مراحل حرجة، استهدفت فيها مصادر

عيش الإنسان سواء منها المنقولة أو الثابتة، وذلك كما قال المؤرخ ابن خلدون" بسب ما يقع في آخر الدولة من العدوان في الأموال.

ولا **مراء** في أنّ دائرة التلصص والحرابة قد استفحلت باتساع دائرة الضيق والشدة، الناجمتين عن الكوارث الطبيعية، وغدا العدوان على أموال الناس وأمتعتهم الخيار الأسهل لمقاومة تداعيات الأزمة الصعبة، وإلا ما الدَّاعي الذي حدا بالخليفة عبد المؤمن بن علي الموحدي أن يصدر مرسومين بشأن قطع دابر اللصوص وقطاع الطرق، لاستتباب الأم في مدة زمنية لا تتجاوز ثماني سنوات.

كما أسامت الكوارث الطبيعية المتنوعة في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرن الثامن الهجري في رسم سلوكات عدوانية بمحاور الطرق والمسالك التجارية، وتفاقم ضرر عصابات اللصوص والحرابة، فاعتبر أبو الحس المريني 731 هـ-752 هـ/ 1331م- 1351م مسألة" تأمين السبل وتمهيد الطرق من أفضل الأعمال، كما إن إخافة السُّبُل من أقبح المعاصي.

**-بث روح الأمان و السلام و التضامن سمات سياسة الدولة الرشيدة:**

كان أغلب السكان في المغرب الإسلامي الوسيط (الجزائر) وأشهر عاصمة الزيانيين تلمسان خلال الأزمات الطبيعية والكوارث يتميزون بالتضامن الاجتماعي وإغاثة المسكين والفقير وكان في مقدمتهم العائلات الميسورة والمحسنين والفقهاء والمتصوفة، وأهل الخير ومن بين أولئك الذي أسهموا في فعل الخيرات أبو العباس أحمد بن مرزوق، الذي كانت له مطامير من القمح والفحم والخليع والزيت، فقد كان يفتحها أمام الفقراء والمحتاجين، ويتصدق بها طوال يومه.